

الدين وإقبال الأتباع المؤمنين فقد كانت له صبغة هذا الأسلوب بعينه غير ظاهر فيها أثر من الكلفة والاصطناع . . لأن مصدر الفحولة في الإبلاغ ثقته بقوله لا ثقة المستمعين إليه . فكلامه كله نسق واحد في هذه الخصلة ، وخطابه كله خطاب سهولة وكرامة ، وسياقه كله مطواع لا احتيال فيه ، ووصاته لمن يقتدى به أن يقصر الخطبة ويقل الكلام كما كان يقول لمن يبعث بهم من الولاة .

ولا يفهم من هذا أن مقتضيات الكلام لم يكن لها أثر في اختلاف الوضع أو اختلاف الموقف وهو يخاطب الناس . فقد كان عليه السلام يلاحظ هذا الاختلاف ويعطيه حقه كما كان يفعل حين يتكئ على قوس وهو يخطب في الحرب ، أو يتكئ على عصا وهو يخطب في العظات ، وكان يبدو على وجهه ما يخرج بصدوره إذا غضب أو أنذر « فكان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش : صبحكم مساكم » . .

* * *

أسلوب عصري :

ولن شاء أن يحسب أسلوب النبي - كتابة وخطابا - أسلوبا عصريا يقتدى به المعاصرون في زماننا هذا وفي كل زمان . . لأن الأسلوب الذي يخرج من الفطرة المستقيمة هو أسلوب عصري في جميع العصور ، ويخطئ من يحسب الوصل بين الجمل شرطا للكلام العربي القديم والفصل بينها علامة من علامات الأساليب المبتدعة في الزمن الأخير ، ويخطئ كذلك من يحسب قبول الكلام لإشارات الترفيم علامة أخرى من علامات هذه الأساليب . فإليك الحديث الذي نقلناه آنفا وهو مثل من أمثلة كتار حيث يقول عليه السلام : « ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله ؟ ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل ، وإن كان مائة شرط : قضاء الله حق ، وشرط الله أوثق ، وإنما الولاة لمن أعتق » .

هذا الحديث رضى البلاغة العربية في وصله وفصله ، ورضى الأسلوب العصري في إشارات ترفيمه ، وآية على خطأ الذين يفرقون بين شروط البلاغة العربية ذلك النحو من التفريق .